الهوية القرآنية للرسالة المحمدية

م.د حسن محمد عبدالخضر
مديرية التربية في محافظة النجف الأشرف
Love2quran@gmail.com

الملخص

حينما نُعرف أي شيء علينا بيانه بأقصر الكلمات وأوضحها وأوثقها، كيف ذلك إذا أردنا تعريف الرسالة المحمدية؟ وأيّ تعريف أجدر ممّا ذكره القرآن الكريم عنها، فقد عرّفها بأفضل ما يمكن وصفها به، ولكي نتحصل على تعريف جامع مانع انبثق البحث في رسم ملامح شؤونها باستنطاق الآيات الكريمات، مع تسليط الأضواء على مجموعة من المسائل المرتبطة بها، والتي تعزز رؤيتنا لشخص النبي الكريم(ص) وأحواله وما يرتبط برسالته الخالدة.

وبهذا يكون البحث –بفضله تعالى– قد أجمل كثيرا من الأمور ووجه الأذهان في هذا المورد المهم من المواضيع الإسلامية، وتلافى الخوض في قضايا تفصيلية تسفر عن كثير من الاختلافات التي رافقت من كتبوا في السيرة النبوية لاعتمادهم –كثيرا– على الروايات التي تبقى في حيز الأخذ والرد والقوة والضعف بين المناقشين والباحثين، مع أن دقائق الرسالة المحمدية يحمل أهميته الخاصة، لكن هذا ليس هدف البحث.

حيث كان البحث ساعيا لتحقيق رؤية مركّزة تعتمد على أوثق مصدر عرفته الإنسانية ألا وهو القرآن الكريم، مع محاولة جادّة في ضبط جوانب الموضوع من خلال عرض خمسة مقاصد بفروعها، مع الخروج بنتائج وتوصيات مهمة.

ثم أنّ البحث لم يكتب بطريقة ذكر الآراء ومناقشتها –وإن كان فيها شيء من الفائدة– وذلك لكي أمنح القارئ الكريم القدرة على التركيز في أصل معرفة ما بيّنه الله تعالى حول نبينا الكريم (ص) ورسالته الخالدة، ومن الله العلي القدير السداد والتوفيق.

الكلمات المفتاحية: (الرسالة المحمدية، التعريف، النبي الكريم، الهوية).

The Qur'anic Identity of the Muhammadan Message

Lecturer Dr. Hassan Muhammad Abdulkhidr
Directorate of Education, Najaf Al-Ashraf Governorate
Love2quran@gmail.com

Abstract

Whenever we define something, we must explain it in the shortest, clearest, and most authoritative terms. How can that be if we want to define the Muhammadan message? What better definition than that provided by the Holy Quran? It defines it in the best possible way. In order to obtain a comprehensive and exhaustive definition, the research began by outlining its aspects by examining the noble verses, while shedding light on a group of related issues that strengthen our understanding of the person of the Noble Prophet (peace be upon him), his circumstances, and what is connected to his eternal message. Thus, the research—by the grace of God Almighty—has summarized many matters and focused attention on this important source of Islamic topics. It has avoided delving into detailed issues that yield many of the disagreements that have accompanied those who have written about the Prophet's biography, relying—too much—on narratives that remain open to debate, strength, and weakness among discussants and researchers. Although the details of the Muhammadan message carry their own importance, this is not the goal of the research. The research sought to achieve a focused vision based on the most authentic source known to humanity, the Holy Quran, while making a serious attempt to capture the subject's aspects by presenting five objectives and their branches, while also arriving at important conclusions and recommendations. The research was not written in a manner that merely presents and discusses opinions—although there is some benefit in it—in order to enable the reader to focus on the fundamental knowledge that

God Almighty has revealed about our noble Prophet (peace be upon him) and his eternal message. From God Almighty is guidance and success.

Keywords: (Muhammadan Message, Definition, Noble Prophet, Identity).

المقدمة

الحمد لله الذي أرسل رسوله ﴿ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾(الإسراء:١٠٥) وجعله ﴿ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾(آل عمران:١٦٤) خصه بالنبوة وأمره بتبليغ الوصية فقال له: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (المائدة:٦٧) فأدى الأمانة وصدح بالأمر «مَنْ كُنْتُ مَوْلاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلاهُ» والحقّ أحق أن يتبع ﴿ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ (يونس:١٠٨)، وصلِ اللهم على محمد وآله الأخيار المنتجبين الأطهار.

من الأفكار التي دارت في ذهني، وانشغلت في إرسائها، ما يتمحور بسؤال مهم: ما الهوية القرآنية للرسالة المحمدية؟ ومع علمنا بأنّ هناك مجموعة من المؤلفات –لدى مختلف المذاهب الإسلامية– قد اهتمت بالسيرة النبوية وأحوالها، لكن الواقع يفرض أن لكل مدرسة رواياتها ومصادرها، ولا يمكن بلوغ الهدف عند سعينا بتعريفٍ للرسالة الغراء على نحو الاتفاق بينها.

ومع أننا نجد –في عصرنا الحالي– أن التعريف بالأشخاص والحاجيات ضرورة، لكن كيف بنا إذا أردنا التعريف بشخصية قيادية على مستوى خاتمية الرسالات، وأنه النموذج الأكمل؟ فإن ترك الأمر بيد من كانوا حوله وما يسطره التأريخ، يقينا يجعل الاختلاف والتناحر سيد الموقف، لكثرة موارد الشبهات والتباس الأمور، بل كيف يصفه من لا يقاس به في جميع الصفات؟! ويبين رسالته وشؤونه وأهدافه، قاصر في إدراك الحقائق والمستقبل والمصلحة الحقّة؟

لذا التزمت أن القرآن الكريم هو الوحيد القادر على ذلك، بعدّه النبع الصافي لبيان أحواله تلك شخصية النبي الأكرم(ص) وما يدور حول رسالته، إذ يتحتم على أي جهة حينما تبعث موفدا من قبلها، لابد أن يكون بمستوى الوفادة، وأن يتم تعريفه للجهة الموفد إليها، لما يشكل تثبيتا لمكانته وتأكيدا لانسجامه وكفاءته للمهمّة الموكلة إليه.

لذا وصل بي المآل إلى أن يكون المُرْسِل تعالى –حتما– قد عَرّفَ بمن أَرْسَلَهُ(ص)، بل لا بد أن يكون التعريف كما في التوصيف المنطقي (جامعا مانعا)، بل لا بد أن يكون لائقا مُشَرِفًا.

وعلى ذلك عمدتُ إلى كتاب الله تعالى لأستقرئ ما يتعلق بنبينا الكريم(ص)، فجمعت الآيات وتأملت فيها، حتى تمكنت إلى تصنيفها -بحسن توفيق الله، وبالاستفادة من المصادر الأصيلة- بما يمكن منحنا نظرة شاملة لبيان الهوية التعريفية من القرآن الكريم لرسالة النبي الأكرم(ص).

وقد قسم البحث إلى، مقدمة وخمسة مقاصد، هي:

الأول: المعلومات الشخصية، وتضمن: استعراض لاسمه الشريف(ص)، طبيعته، أهل بيته، صفاته، صفته العليا، وخصوصياته.

الثاني: المصدرية المعرفية، وفيه: مصادر النبي(ص) لتلقي المعلومات والأوامر الإلهية، ووظيفته التي أرادها الله له.

الثالث: الإيفاد وشؤونه، وحوى: جهة الإيفاد، ميزة الموفد، التخطيط الاستراتيجي، حدود مهمته(ص)، مهماته الفرعية، أجره، طبيعة رسالته، وتكليفه.

الرابع: الاتباع والأعداء، وفيه: اتباعه(ص)، فريق العمل، أعداؤه، وجزاء أعدائه الدنيوي والآخروي.

الخامس: السنة والاقتداء، وتضمن: سنته(ص)، الاقتداء به، اتهامه، دعوته، وشكواه.

المقصد الأول: المعلومات الشخصية

يشكل التعريف بالمعلومات الشخصية من الأمور التي تهتم بها كثير من فئات المجتمع -خصوصا في عصرنا الحالي- وبهذا نتصور إمكانية -بل ضرورته لعظيم أهميته- تعريف القرآن الكريم بالرسالة المحمدية؛ حيث وجه الله تعالى خطابه للناس عبر رسوله(ص) بعد تعرّيفهم به، وإجماله في:

أ: الاسم

ورد اسم النبي الأكرم(ص) في أربعة مواطن قرآنية، تؤكد عظم منزلته ورسالته، منها الآية المباركة ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ (الفتح:٢٩) لتبين الاسم الصريح. وإن كان في موضع آخر حكاية على لسان السيد المسيح(ع) حيث سماه (أحمد)، قال تعالى:﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ (الصف:٦)[١]، ويمكن عد التصريح بالاسم العربي زيادة في تكريمه(ص) وكذا تكريم اللغة العربية.

ب: طبيعته

أراد سبحانه تأكيد مسألة (بشرية) النبي(ص)، كما في حكايته تعالى عن لسان(ص) ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ (فصلت:٦) فأنا وأنتم متساوون في طبيعة الخِلقة، التي أكد عليها الله بقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ (المؤمنون: ١٢)، والاختلاف ناشئ ما حققته في طريق تكاملي حتى اصطفاني الله لأكون نبيا يوحي إليّ أوامره وأبلغها إليكم.

مع أن هذا يعدّ –ظاهرا– من الواضحات المستقرة في فهم عموم الناس، ولكن أهميته تتضح بتأكيد الله تعالى بعدة آيات شريفة، مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ (الإسراء:٩٣). ومن حِكم هذا الأمر أن جعله الله امتحانا كما ذهب السيد فضل الله بقوله: إذ تمثل بشرية النبي(ص) امتحانا للناس في إيمانهم عندما يأتيهم النبي بشرا عاديا، فيدعوهم إلى عبادة الله، بعيدا عن كل العوامل التي تخطف بصره، وتسلب لبّه، وتثير شعوره. (١٤١٩هـ، ١٧: ٢٦).

حيث أن شعوره (ص) بالألم وضيق النفس ووجود شؤونه الخاصة، لا تتنافى مع الرسالة التي يحملها(ص)، بل وبشريته لا تلغي عصمته – التي هي: «ملكة نفسانيّة تمتنع عن الفجور وتتوقّف على العلم بمثالب المعاصي ومناقب الطّاعات». (بنياد، ١٤١٤هـ، ٢١٢)– أو تقلل منها، إنما تُعَظّم من مكانته، فمع بشريَّته إلا أنه في منتهى الكمالات.

بل بدونها لا يكون بهذه المنزلة العليا؛ فمن لم يمكنه المعصية –مثلا– لا معنى لفضيلة تركها، ومن لم يشعر بحجم المآسي لا يكون من الصابرين المحتسبين، فلا فضل للحجر أنه لا يزني ولا ينهار أمام البلاء. فقد ذمّ القرآن المشركين بتشبيههم بقسوة الحجارة بقوله: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام: ٤٣) إذ يفترض بهم التضرع لله ولكن تلك القلوب التي تجلّدت وأصبحت قاسية بفعل كفرهم لا يرتجى لها الخشية من الله. بل زاد تعالى في ذمّهم في موطن ثانٍ بتذكيرهم ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ البقرة (٧٤).

ت: أهل بيته

تُشكل قدرة الشخص على التأثير في الآخرين –في كثير من الأحيان– مرتبة مهمّة في تقييم إنجازه، بلحاظ ما أودعه فيهم وعلو صلاحهم واقتدائهم به، خصوصا من كانوا امتدادا له –على المستويين النسبي والعلمي– حتى يعرف كم كان مؤثرا فيهم، ومربيا لهم، وما استفادوا منه.

ومن عظمته(ص) قد وصل آل البيت(ع) لدرجة أنهم لا يقاس بهم أحد، كما قال مولانا أمير المؤمنين(ع): «نَحْنُ أَهْلَ الْبَيْتِ لَا يُقَاسُ بِنَا أَحَدٌ فِينَا نَزَلَ الْقُرْآنُ وَفِينَا مَعْدِنُ الرِّسَالَةِ» (ابن بابويه، ١٤٢٠هـ، ٢: ٢٤)، والله جعلهم طاهرين مطهرين بصريح قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (الأحزاب:٣٣)، وحتما، ليس التطهير إلا إكراما منه تعالى لهم؛ لشدّة ذوبانهم في طاعته، وعظيم اخلاصهم له، حتى صاروا مظهر صفاته جل وعلا.

ث: صفاته

عدد الله تعالى كثيرا من خصال نبيه الكريم(ص) وصفاته، حيث كان متفردا في جميعها، وإن تميزت بعضها وأخذت نصيبا أوفر في ذكرها، لارتباطها المباشر في رسالته، كما في قوله تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة:١٢٨) حيث شكّلت رحمة النبي(ص) ركيزة أساسية في قيام الإسلام، بما صرح الله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (آل عمران:١٥٩)، فقد كان(ص) في قمة الإشفاق على الناس جميعا، حتى أولئك المعاندين لدعوته(ص)، رغم أن واجبه كما كلفه الله ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (العنكبوت: ١٨)، لكنه أكثر من النصح لهم وأسهب في وعظهم، حتى دعاه الله تعالى لترك الالحاح في دعوتهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (البقرة:٦). بل أوشك على الهلاك حسرة عليهم، فأراد منه تعالى أن يتلطف بنفسه الطاهرة ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ (الكهف:٦).

وكان دائم الاستغفار لهم، ولم يَسأَل اللهَ يومًا أن يُنزِلَ بهم العذابَ، رغم شدّة أذاهم له، وما لَقِيَهُ من كفرِهم وعنادِهم، كما أعلن ذلك بقوله: «مَا أُوذِيَ نَبِيٌّ مِثْلَ مَا أُوذِيتُ» (ابن شهر آشوب، ١٣٧٩هـ، ٢٤٧) وهو عظيم الصبر ومنقطع الشكاية. خلافا لغيره من الأنبياء(ع)، كما حكى اللَّهُ ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ (نوح: ٢٦).

ج: صفته العليا

يتمتع النبي الأكرم(ص) بصفات الكمال، وقد كَتَب في مدحه والثناء عليه القاصي والداني، ولو كان فيه –وحاشاه– عيب أو نقص في أيّ أمر لاتخذه أعداؤه حجة في الطعن فيه، وانكار رسالته. وقد امتدحه الله بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم:٤) وقد ميّز الله تعالى الخلق –رغم أن جميع صفاته عليا– لأنّه الأكثر تأثيرا في المجتمع، والسبب المباشر في إعلاء الرسالة. والحقّ أن

خلقه صار مقياسا للأخلاق، فمن أكثر أو قلّ أخطأ الصواب، وهذا التأثير لخلقه(ص) – وكذا لأهل بيته (ع)– ما زال –وسيبقى– صداه مستمرا في نفوس الناس وعملهم جيلا بعد جيل.

ح: خصوصياته

اختصّ الله نبيّه الكريم(ص) بأمورٍ عدّةٍ، منها خصوصيّه بيته، فقد لفت القرآن أنظار بعض الصحابة أنّ بيت النبي(ص) لا يمكن ارتياده متى ما شاؤوا، وردعهم على خطأ تفكيرهم بنهيهم ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾ (الأحزاب:٥٣)[٢] فالاستئذان واجب قبل دخول أيّ بيتٍ، وهو أوجب بخصوص هذا البيت، فإيذاء النبي(ص) يستوجب إيذاء الله، ويأتي التأكيد زيادة إكرام مقامه(ص)، مع سريان الحكم لباقي بيوت المعصومين(ع)[٣]، فحرمتهم واحدة.

المقصد الثاني: المصدرية المعرفية

أيُّ متحدث –وخاصة في الأمور العليا– عليه أن يبين مصادره التي استقى منها معلوماته، فكيف برسول الله(ص) وهو يخبر عن الغيب وأحداث ضاربة في عمق التأريخ، وأمور لم يألفها الناس ولم يسمعوا عنها، وتتركز في:

أ: مصادره

يتمتع الأنبياء(ع) بنوع من الطرق لتلقي الأوامر الإلهية، وبعضهم يكون له طريقان، حيث قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ (الشورى:٥١)، «لقد جمع لمحمد بين مثلث الوحي: دون حجاب– ومن وراء حجاب المنام او الكلام– وبواسطة جبريل». (الصادقي، ١٤٠٦هـ، ٢٦: ٢٥٤). حيث فضّل الله تعالى نبينا الأكرم(ص) بإمداده بجميع الطرق، بل كان الأمين جبرائيل(ع) ملازما له، وأصبحت بينهما أسمى علاقة، يكشفها تعبيره بـ(أخي) و(حبيبي) جبرائيل. بل الحق أن العلاقة بينها ليست توادد فحسب، إنما قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ (التحريم:٤) فما أعظم تلك الأواصر بأنّ «الله ناصره، وجبريل رئيس الكرّوبين قرينه، وعليّ بن أبي طالب أخوه و وزيره ونفسه». (م. الكاشاني، ١٣٧٦هـ ش، ٢: ١٣٢٢).

ب: الوظيفة

قد كان للنبي الكريم(ص) وظائف متعددة، من أجلها ﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:١٥١) فهذه الأعمال تدل على استمرار العمل

بدلالة ورود الأفعال في الآية الكريمة بصيغة المضارع، وأنها تُؤدى مترافقة، فإنّه(ص) يتلو على الناس الآيات النازلة ويرشدهم لسبل تزكية النفس، مع قيامه ببيان القرآن وتفصيل مجمله لقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (النحل:٤٤)، ولهذا فالنبي(ص) – والمعصومين(ع)– عدل القرآن، فلا يمكن الاستفادة الحقة منه أو معرفة أوامر الله تعالى ونواهيه، وأحكام الشريعة الغراء، بل سائر المعارف، إلا بالأخذ بالآيات مع الروايات سوية.

مضافا لذلك، لم يترك(ص) جانب التربية والأخلاق لمجرد اهتمامه بالتعليم، وإنما يربيهم مع تعليهم، واستعمال صيغة المضارع –في الآية الكريمة– تدل على دوام ذلك طيلة حياته الشريفة، وبعد رحيله، تنتفع الأمة ممّا نقل إليهم صحيحا عنه(ص)، مع لحاظ خلافة الأمر من قبل المعصومين(ع) من بعده(ص)، فيكون التعليم مع التربية في حالة استمرار لا انقطاع لهما.

المقصد الثالث: الإيفاد وشؤونه

هي معلومات مهمة لتمييز الفرد العادي عن المختار للوفادة وتحديد مسؤولياته وشؤونه، والتنبه لمواردها يعزز رؤيتنا بخصوص المُرْسِل والرسول، وما يرتبط بالإرسال، وأهم أمورها:

أ: جهة الايفاد

المُرْسِل –دوما– يضفي على رسوله شأنيته، فإن كان عظيما ثبت رقي الرسول؛ لأنه لا يختار وضيعا مطلقا، ويمكن كشف مكانة الرسول بمعرفة من أرسله. ثم أن الرسول يعلو بعلو من أرسله ويَدنو إنْ كان دُنُوًّا، لذلك بيّن الله أن من أرسل النبي الكريم(ص) ﴿الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۞ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ (الجمعة:١-٢).

ب: ميزة الموفد

اختار العليُّ القدير الحبيبَ المصطفى(ص) ليكون ﴿رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ (الأحزاب:٤٠)، فكان كامل الصفات للرسالة الكاملة، وأجتبى خير الورى لقيادة خير الشرائع.

بلحاظ أنّ الرسول أعمُّ من النبي[٤] –فالرسل جميعهم أنبياء، أمّا الأنبياء فليسوا جميعا رُسلا– فرسالته من حيث نطاقها أعم وأشمل، ومن حيث المهمة أعقد وأوسع؛ لذا كان اختيار الله لأبي القاسم(ص) رسولا لجميع الناس على الكرة الأرضية منذ بعثته وإلى يوم القيامة، وهذا امتياز لم يكن لأحد من الرسل قبله. وخاتما توقفت به بعثه الأنبياء(ع).

من ذلك أصبحت الشريعة التي جاء بها ناسخة لما قبلها، فصارت مُلزمة للناس جميعا باتّباعها والعمل وفقها(٥)، لما تميّزت به من مرونة وتلاءم مع متطلّبات كلّ زمان ومكان، حتى نهاية الأرض ومن عليها.

ت: التخطيط الاستراتيجي

تحقيقا لبلوغ الغاية السامية التي صرح الله تعالى بها من إعلان الهدف الأسمى للكتاب المجيد أن يكون ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾ (البقرة:١٨٥) كان عمل المعصومين(ع) ابتداءً من النبي الكريم(ص) بأدوارٍ عملت على تحقيق سلسلة تكاملية منتظمة من الأهداف الجزئية، وصلا لإعمام الهداية وتوحيد الله تعالى.

من هذا بعث الله الأنبياء ونصّب الأئمة المهديين، ليكونوا بحركة جهادية مضنية متناغمة ﴿لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ (الحديد:٩)، والخروج إلى النور كناية عن المعرفة الحقّة والإيمان الخالص.

ث: حدود مهمته

حقق النبي(ص) انتشارا –يسيرا– لدين الله تعالى بالنظر لكون رسالته عالمية، ويراد منها أن تغطي مساحة الكرة الأرضية، وهذا استلزم وجود سلسلة الأدوار للمعصومين(ع)، والتي يختمها قيام المهدي المنتظر(ع) لإتمام الغاية المرجوة؛ لأن المهمة هي: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (التوبة: ٣٣)، حيث سيعمّ دين الله البشرية بمنّه تعالى، وذلك بتحقق الوعد الإلهي ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (الأنبياء:١٠٥)، حيث ما تزال الأرض قبله يسودها أهل الظلم والفساد.

ج: مهماته الفرعية

في هذه الرسالة الإلهية يتطلّب القيام بمهامّ ساندة للمهامّ الرئيسة، فقد أوكل للنبي(ص) أن يكون ﴿شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ (الأحزاب:٤٥-٤٦) فعليه النظر في ما تفعله أمته من بعده، وتبشير الناس وإنذارهم مع دعوتهم لالتزام جادّة الحقّ والشرع، وأن يضيء طريقهم بسنته(ص) – مضافا لسنة أهل بيته(ع)– وتشبيه النبي بالسراج أو القمر ماديّا، إنما لما يضيئه من نور المعرفة والإيمان، كما أنّ القرآن نور، لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ

بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ (النساء:١٧٤). وبالتالي فالنبي(ص) مشمول بهذا النور؛ لأنه حامل القرآن ومبينه.

ح: أجره

لكلّ عاملٍ أجرٌ، والأجر بما يتناسب وأهميّة العمل الذي أدّاه، ومستوى اتقانه له. لكن ما أجر الأنبياء(ع)؟ ومن يدفعه؟ نجد أنّ القرآن بيّن تفصيل ذلك، إذ جملة منهم(ع) صرحوا بأن أجرهم على الله تعالى، كما قال نوح(ع): ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ يونس:٧٢، وبيان هود(ع):﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾ (هود:٥١).

إلا أن أجر النبي الأكرم(ص) كان وضعه خاص، فقد بيّن الله تعالى بوضوح ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ (الشورى:٢٣) بهذا عليك إخبارهم أنّ الله جعل أجري منكم.

وهذا تكليف ممّا يرهب النفوس المؤمنة، حيث على الناس (مَوَدَّةَ) أهل بيته(ع)، ويفترض بها أن تكون متناسبة –طرديا– مع العمل الذي قام به النبي(ص) بلحاظ تفرده وجلالته، فتكون تلك (الْمَوَدَّةَ) عظيمة بما لا تدانيها محبة خالصة لغيرهم(ع)، ثم أنها تستلزم عظمة البغض لإعدائهم.

علاوة على ذلك، لا يستطع أحد أن يحب شخصا حبا خالصا، إلا بمعرفته معرفة جيدة، فإن عرف أهل البيت(ع) هكذا، لاتبعهم، إيمانا منه بفضلهم وإقرارا بمنزلتهم. ومن طرق ذلك، ما بينه الإمام الرضا(ع) بقوله: «فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا» (ابن بابويه، ١٤٢٠هـ، ١: ٢٧٢)، فإن كانت قلوبكم في ودهم، فستنصاع عقولكم لولائهم.

خ: طبيعة رسالته

من مظاهر السموّ في بعثة النبي(ص) أنّه أُرسل ﴿بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾(التوبة:٣٣) ليتميز عن باقي النشاطات الدنيوية، التي يغلب عليها منطق السلاح أو أساليب التحايل.

حيث زوّد الله تعالى نبيه(ص) بأفضل وسائل الهداية وبيانها، التي كان من أجلها القرآن الكريم كلام الله المعجز، ووهبه الأئمة الأطهار(ع)، وزوّده بإمكانات متعددة، كرفده بالأمين جبرائيل(ع) مستشارا، ووصلة بين السماء والأرض، وتدفق المعاجز علي يديه الكريمتين، لإثبات سماوية دينه الذي أراده الله لعباده، و﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ (الأنفال:٨)، ولا يتصور معارضته إلا من قبل من طُبع على قلوبهم الضلالة.

د: تكليفه

لا يفرض الله على نبيّه الكريم(ص) -ولا على أنبيائه(ع)- إيمان الناس به، فمنزلته وأجره لا تحسب بعدد التابعين له، وإنما تكليفه منحصر بإبلاغهم رسالة الله، إذ ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (النور:٥٤)، نعم لابد أن يكون بأسلوب واضح لا لبس فيه؛ لإلزام الناس الحجّة يوم القيامة.

بل من جهة أخرى، فإنّ الأرض -وما فيها- خُلقت لأجله -وأهل بيته(ع)- ومن بركته. كما ورد في خطاب الله تعالى لآدم(ع): «لَوْلَا هَذِهِ الْأَسْمَاءُ مَا خَلَقْتُ سَمَاءً مَبْنِيَّةً وَلَا أَرْضاً مَدْحِيَّةً وَلَا مَلَكاً مُقَرَّباً وَلَا نَبِيّاً مُرْسَلًا وَلَا خَلَقْتُكَ يَا آدَمُ». (الخصيبي، ١٤١٩هـ، ١٠١).

المقصد الرابع: الاتباع والأعداء

لا ريب أنّ تمييز الناس وتصنيفهم له أهميته وطرقه، وفي الرسالة المحمدية يمكننا بيان ذلك بحسب الآتي:

أ: اتباعه

يمتاز الدين الإسلامي بأنه يقوم على أساس الاعتقاد مع العمل، وبحسبهما يتعاظم الأجر، فمن جعل اعتقاده لله وعمله لما أراد سبحانه، تكون منزلته يوم القيامة ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾(النساء:١٣) وذلك لا يتحقق إلا بطاعة دائمة ومستمرة، بدلالة (يُطِع)، وأن تكون لله تعالى مع النبي(ص) في كل ما أمرا به.

والحقّ أنه ليس هناك طاعتان، فأصل الطاعة لله تعالى، وتلحق بها طاعة النبي تبعا لها، كما يفهم من قوله جَلَّ في عُلاه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (النساء:٦٤).

ثم أنّ الله جعل لنبيه(ص) صلاحية اصدار مستوى من التشريعات بإذنه، حيث ذكر الشيخ الشيرازي في معرض تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ (النساء:٥٩)، فقد بيّن «إنّ الإطاعة المطلقة لا تصحّ إلّا من المعصومين، وبما أن الآية الشريفة ذكرت إطاعة أولي الأمر بصورة مطلقة فلذلك نعلم بأن أولي الأمر يجب أن يكونوا من المعصومين». (١٤٢٥هـ، ٨١).

على هذا، فاتباعه(ص) يتفاوتون، فكل واحد يبدأ سباق التفاضل من نطق الشهادتين، ثم يكون مسلما، ثم مؤمنا. وفي كل واحدة من هاتين الدرجتين مستويات عديدة، ويختلف الناس في رقيهم، فقد يمضي سريعا لأعلى مراتب الإيمان، وقد يبقى عمرا في أول مراتب الإسلام. وقد يرتقي ثم ينحدر

وقد يخرج من رقبة الإسلام، ولا يكون له منه إلا اسما. كما أشار الله تعالى ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ (آل عمران: ١٤٤). فالانقلاب يقتضي تصديق سابق، فمن لم يعتقد بالنبي(ص) لا يصحّ وصفه بالمنقلب عليه.

ب: فريق العمل

يمكننا تقسيم أمّة النبي الكريم(ص) -بلحاظ قيام الإسلام ونشره- على نحوين: فريق العمل الرسالي، وعامة الناس. فالأول: هم الذين يسعون لتحقيق أهداف الرسالة ونشرها، فيكون عليهم واجبات والتزامات خاصة، ودوامه وعلوه ببركة جهودهم، وإن كان كلّ بحسبه. وأما الثاني: فهم الذين تكون أهدافهم شخصية ومسعاهم متواضعا[٦]، يتعاملون في حياتهم بعزلة عن التفكير بإعلاء راية الإسلام والتضحية من أجله.

ويمكن عد توصيف الله تعالى ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾(الفتح:٢٩) منسجما ودالا على الصنف الأول، وهم الذين ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (المجادلة: ٢٢).

وهذا التصنيف شامل لجميع الناس، منذ عصر النبي(ص) وإلى يوم القيامة، مع التنبه أنّ الأمر لا يتعلق بإثبات إسلام الصنف الأول وسلبه عن الثاني، أو بيان من في الجنّة ومن في النار، وإنما التفريق بين أصحاب الاستعداد لنصرة الإسلام وإعلاء كلمته، من غيرهم، مع إيكال أمر إيمانهم من ودرجته لله علّام القلوب والنوايا، إذ يمكن أن شخصا ظاهره يسعى للدفاع عن الإسلام ونشره ونواياه خبيثة، كما بيّن اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (التوبة: ١٠٧).

ت: أعداؤه

ليس للنبي(ص) عداءٌ شخصيّ، وإنما من كان جاحدا بنعم الله تعالى، متعديا لحدوده، لا يمكن أن يكون مقبولا عنده(ص) أو أن يركن(ص) إليه، والله أمر الناس ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ (هود:١١٣) فمن باب أولى أن يتورع من ذلك شخص النبي الأكرم(ص). وقد أوضح الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾(النساء:١٤).

والحق أن هذا هو المعيار الأدق للقرب من النبي(ص) والبعد عنه. إذ التقوى أولا ثم العلم، ويأتي النسب آخرا، هكذا يقام الميزان الإلهي، كما نستفيد من جواب الإمام زين العابدين(ع) حين رأه شخص وهو يبكي ويتضرع لله تعالى: «هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ يَا طَاوُسُ، دَعْ عَنِّي حَدِيثَ أَبِي وَأُمِّي وَجَدِّي، خَلَقَ اللَّهُ الْجَنَّةَ لِمَنْ أَطَاعَهُ وَأَحْسَنَ، وَلَوْ كَانَ عَبْداً حَبَشِيّاً، وَخَلَقَ النَّارَ لِمَنْ عَصَاهُ وَلَوْ كَانَ قُرَشِيّاً، أَ مَا سَمِعْتَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَساءَلُونَ﴾». (المازندراني، ١٣٧٩هـ، ٤: ١٥١).

ث: جزاء أعدائه الدنيوي والأخروي

إنّ الله تعالى يدافع عن أنبيائه(ع)، بأشد آيات العذاب، حيث يصور لنا شيئا منها ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ... وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾(آل عمران:١٥١) وهذا ثابت بالأدلة التأريخية الكثيرة الباهرة على مرّ الزمان، بأن الله انتصر لهم، وأذل أعداءهم، فبعض ذلك بطلب منهم، كما لبى الله دعوة نبيه نوح(ع) ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾ (القمر:١١)، أو بأمر منه تعالى كما حدث مع قوم لوط(ع) ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ﴾ (هود:٨٢)، مع اختلاف السبل والتوقيتات، التي يقدرها سبحانه بحكمته.

وذلك الهلاك لأعدائه قد يكون: معنويا فحسب، كما أذهب في عقاب أصحاب السبت ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ (الأعراف: ١٦٦)، فليس خلقة حيوان القرد أذل عند الله حتى يجعل إنسانا قردا. ومن ثم لو حوله هكذا فكيف سيدخله النار يوم القيامة؟ وهي لم يجعلها للحيوانات. وإنما الأصح –والله العالم– أنه تعالى جعل عقولهم وأحلامهم متناسبة بما عند القردة، حيث سلب منهم الإكرام الذي بينه لعباده ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء: ٧٠).

أو معنويا ماديا، كما في غالبية العقوبات التي حلّت بالأقوام الذين كفروا بأنعم الله ورفضوا التسليم لما دعاهم به أنبياءهم(ع)، وكل ذلك لتثبيت العبر وتأكيد السلطة الإلهية.

المقصد الخامس: السنة والاقتداء

يؤكد هذا المقصد على أنّ كمال شخص النبيّ(ص) وتسديده الإلهيّ، يجعلانه شخصا استثنائيّا لا تشوبه شائبة، وما يصدر عنه واجب الالتزام به، وهناك مسائل نتعرّض إليها، بإمعان النظر إلى:

أ: سنته

نزل القرآن الكريم لبيان القواعد العامة المرتبطة بهداية الناس، مع بعض الإشارات العلمية وغيرها، وتكفلت السنة النبوية بالتفصيل، التي «هي الحجّة الثانية بعد الكتاب العزيز، سواء أ كان منقولاً باللفظ أم كان منقولاً بالمعنى شريطة أن يكون الناقل ضابطاً في النقل، وقد خصّ الله بها المسلمين دون سائر الأُمم» (السبحاني، ١٣٨٣هـ ش، ١٨)، وتتمثل في قول النبي(ص) وفعله وتقريره، وامتدادا لها سنة المعصومين(ع)، وقد أمر تعالى الناس ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ (الحشر:٧). وكما ذمّ سبحانه ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ (الحجر:٩١)، فكذلك السنة المعصومية لا يحق لأحد يؤمن بالله ويتبع النبي(ص) أن يأخذ ببعضها ويترك بعضها الآخر، والمؤمن من يأخذ بتمام القرآن والسنة الصحيحة، مؤتمرا بأمرهما، مُنتهيا بنهيهما.

ب: الاقتداء به

أهمية وجود النموذج الذي يحتذى به، أمر فطري لدى الناس لا يختلفون فيه، وإنّ النبي الأكرم(ص) النموذج الأكمل الذي عرفته البشرية، وقد أقر جميع أهل قريش بعلو منزلته وفضله، لما عرفوا عنه وثبت لهم على أرض الواقع، فقد ولد ببيت من بيوت سادتهم ونشأ بينهم، وبهذا قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ (التوبة:١٢٨) ولذا أكد سبحانه على الاقتداء به ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب:٢١)[٧]، ثم أن هذا الاقتداء لا بد فيه من الاستمرار بدون انقطاع؛ لأنّ المُقتدى به ثابت على حاله كمالا في الاقتداء.

ت: اتهامه

حينما عَلِم أعداء الإسلام أنهم سُقط في أيديهم وخاب أملهم في بلوغ مقاصدهم، سعيا للنيل من دين الله تعالى، لافي خلّة في شخص النبي الكريم(ص)، ولا خلل في قرآنه المجيد، بادروا إلى محاولات يائسة، منها نسب التهم الكاذبة له ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ (الحجر:٦) محاولين في هذا إسقاطا لأهلية خصمهم.

والعجيب أن من أقروا برجحان عقله وعظمة خُلْقِه ووَرَعه، يجعلونه عديم العقل! فأدعوا: كيف أن قرآنا أنزل عليك وأنت أميّ لا تقرأ ولا تكتب؟ وتغافلوا عن أن القراءة والكتابة ليستا من شروط النبوة، وليس لهما مورد في نقل رسائل الله عبر القرآن أو غيره.

ثم أن الفهم لأميّة النبي(ص) أثار اختلافا بين العلماء والمتخصصين، وأجد –والله العالم– أنه بعالم القوة –كما يعبرون– قادر على القراءة والكتابة، ولكن في عالم الفعل لم يُنقل لنا أنه كتب أو قرأ في كتاب، والآية الكريمة ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (العنكبوت:٤٨) تنفي الوجود الخارجي –الفعل– وليس أصل المعرفة –القوة– وعلى ذلك أدلة عقلية وتأريخية كثيرة.

وكذلك ساقوا تهمة إنكار صلّته بالسماء: أنّ وحيا يحدثك! لجعل القرآن من تسطيره أو أخذه من رهبان المعابد، وهذه واحدة من جملة تُهم أثبت القرآن الكريم طائفة منها، بل وجابهها بردّ قاسٍ، كما قَالَ اللَّهُ جَلَّ في عُلاه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (يونس: ٣٨)، فأبطلَ الله مكرَهم، وسَخَّف أقوالَهم، وأقامَهم على تحدٍّ مفتوحٍ إلى يومِ القيامة، لا يملكون له جوابًا.

ث: دعوته

ما الذي يُحيي الناس؟ الحقّ أنه اتباع القرآن باعتباره ﴿دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ (الأنفال:٢٤) مع البيان والإرشاد للنبي(ص) وأهل بيته الطاهرين(ع)، فاتباع ما جاءوا به يَمنحُ الإنسانَ حياة طيبة أبدية، تبتدئ من أيام الدنيا.

لذا مجرد قيام الجسم بوظائفه الفسلجية –بل ومزاولة الأعمال المتنوعة وكسب الأموال والعمران والتقدم التكنلوجي– ليس دليلا على الحياة الطيبة التي أرادها الله تعالى لأوليائه، فـ«ليس الإسلام مجرد تنظيم للسلوك الخارجي، وإنما هو رسالة تهدف إلى صنع الإنسان قبل كل شيء ومنحه الحياة الجديرة به» (الصدر، ١٤٣٤هـ، ١٩: ٣٤٣). فقد عبر الله تعالى عن بعض الأحياء ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ﴾ (المنافقون:٤). بل قد ذمّ الأقوام ذات الحضارة ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ (الرّوم:٩).

ج: شكواه

حينما يقف شفيع الناس ونبيهم متحسرا شاكيا ﴿يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ (الفرقان:٣٠) فما أعظمها من شكوى! فهي خطيرة بكل تفاصيلها، حيث عرصات يوم القيامة ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ (آل عمران: ٣٠) في ذلك الموقف الرهيب، يقدم الرسول الكريم(ص) شكواه على أمته، فتعقد المحاكمة

أمام الله تعالى ليتم محاسبة الناس عمّا فعلوه بكتاب الله تعالى؟ والأصل أن الجميع قد ضيعوه، حتى يثبت كل واحد منهم أنه عمل به. فتجرى عليهم قاعدة ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: ١١١).

والحقّ أن العمل بالقرآن لا يكون إلا بقراءته وفهمه والعمل وفق ذلك الفهم، وحتى غير المتخصصين لا يسقط عنهم التدبر، ولا بد أن يأتوا به ولو يسيرا؛ لشمول جميع الناس بقوله تعالى:﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (محمد:٢٤)، وإنما الاختلاف في سعة التدبر لا في أصل وجوبه، وليس كل أراد الجنة بلغها، ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الأعراف:١٥٧).

الخاتمة: النتائج والتوصيات

أولا: النتائج

- القرآن الكريم هو مصدر المسلمين الأساس في الحياة العلمية والعملية، خاصة في المسائل المهمة التي عليها معولنا واعتمادنا.
- اهتمت المؤلفات في السيرة النبوية بذكر تفاصيل كثيرة، لكنها أهملت التقصي الشامل والدقيق لها في الكتاب المجيد المعجزة الخالدة.
- هناك قدرة لكشف معالم الرسالة المحمدية من القرآن الكريم، والأولى في تحقق الإثراء المعرفي لهذا الموضوع المهم كتاب الله تعالى.
- تمتاز السيرة المحمدية بأنّ لها بعدا عقائديا وبعدا تعبديا، ولذا يجب أن لا نوكل الأمر إلى السرديات التأريخية أو أن نوغل في النصوص الحديثية ونهمل القرآن الكريم.
- البحث يثبت أن القرآن الكريم حينما حوى مواضيع كثيرة، حتما لا يغفل عن بيان معالم هذه الرسالة الخالدة؛ كي يبين فضلها ومنزلتها عند الله تعالى، ويبعد عنها التشكيك وتجاذبات العلماء وآراء المتخصصين.
- يجدر بجميع المكلفين أن يعرفوا معالم الرسالة المحمدية، وحصيلة هذا البحث كافية –بحسب رأيي– لما يجب أن يعرفوه، مع بيان مسائل عقائدية ومعرفية يحسن عدم جهلها.

ثانيا: التوصيات

– علينا تفعيل دور القرآن الكريم في جميع شؤوننا وخاصة الرئيسية والمهمة منها، وعلى جميع المستويات التعليمية والبحثية.

– تحفيز الباحثين على الاهتمام الأكبر بالسيرة المحمدية وجعل القرآن الكريم هو المصدر الأساس في تقصي جزئياتها، لرد الشبهات وإجلاء الحقائق.

– توعية المجتمع بأهمية قراءة السيرة المحمدية بتأمل في كامل شؤونها، والسعي الجاد في تطبيق فقراتها قدر الإمكان وتعلق الأمر بالناس.

– تدريس السيرة المحمدية وفق القرآن الكريم في جميع المؤسسات التعليمية الإسلامية، وعدم السماح بتقليل أهميتها وصدارتها.

الهوامش

(١) وقد يكون سماه بصفته التي هي كثرة الحمد لله تعالى. حيث أن لاسم (أحمد) معنيان: **أحدهما**: أن يجعل مبالغة من الفاعل، أي: هو أكثر حمدا لله من غيره. و**الآخر**: أن يجعل مبالغة من المفعول، أي: يحمد بما فيه من الأخلاق والمحاسن أكثر ممّا يحمد غيره. (ف، الكاشاني، ١٤٢٣هـ، ٧: ٤٥).

(٢) وحسب فهمي لخطاب الآية الكريمة التي ابتدأت ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ ...﴾ (الأحزاب:٥٣) أنّه خاصّ بالمؤمنين، أما غيرهم فليسوا مشمولين؛ لانتفاء الأذن لهم مطلقا، فقد حُرِم غير المؤمن من رخصة دخول بيت(ص) النبي، أيّا كان الداع والاعتبار، وإنما الإذن مخصوص بالمؤمنين، مع شريطة الاستئذان وقصر البقاء. فكيف لا وهو من أجلّ مصاديق قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ (النّور: ٣٦).

(٣) حتى أن الإمام الحسين(ع) استشهد بهذه الآية الكريمة في نزاع دفن الإمام الحسن(ع)، فقال: «وَقَدْ أَدْخَلْتِ أَنْتِ بَيْتَ رَسُولِ اللَّهِ(ص) الرِّجَالَ بِغَيْرِ إِذْنِه». (الكليني، ١٤٠٧ق، ١: ٣٠٢).

(٤) وجود التفاضل والاختلاف بين المرتبتين، وعموم شريعة الرسول وخصوص نبوة النبي، وأن الرسول من له شرع خاص به مستقل عمن سبقه أو مكمّل له. والنبي قد لا يأتي بشرع جديد أصلا بل يتبع شريعة من قبله، كما أن التفريق في التبليغ. ينظر: (الأعرجي، ١٤٢١هـ، ٨٦).

(٥) والذي أحسبه –والله العالم– أن السيد المسيح(ع) حاليا باعتباره حيا لم يمت، يعمل وفق شريعة سيد المرسلين (ص)؛ لتوقف صلاحية شريعته.

(٦) مثال النحو الأول: العلماء ورجال الحوزة العلمية الشريفة. أما مثال الثاني: فكثير من الناس الذين لا يشكل لهم نشر الإسلام وتحقيق أهدافه شيئا.

(٧) وهذا التأكيد ورد بحرف التوكيد (قد) وكذا بالـ(لام) الموطئة لجواب القسم، وبالتالي فالآية أرادت إفادة التوكيد بأسلوبين.

المصادر والمراجع

– خير ما نبتدئ به القرآن الكريم

١. الأعرجي، س. ج. ح. (١٤٢١هـ). الوحي ودلالاته في القرآن الكريم والفكر الإسلامي. دار الكتب العلمية. (الطبعة١).

٢. ابن بابويه، م. ب. ع. (١٤٢٠هـ). عيون أخبار الرضا (م. اللاجوردي، تحقيق). نشر جهان. (الطبعة١).

٣. بنياد يزوهشهاي اسلامي، كرور كلام. (١٤١٤هـ). شرح المصطلحات الفلسفية. الروضة الرضوية، بنياد بزوهشهاي الاسلامي. (الطبعة١).

٤. الخصيبي، ح. ب. ح. (١٤١٩هـ). الهداية الكبرى. دار البلاغ. (الطبعة١)

٥. السبحاني، ج. التبريزي. (١٣٨٣هـ ش). أصول الفقه المقارن فيما لا نص فيه. مؤسسة الإمام صادق(ع). (الطبعة١).

٦. ابن شهر آشوب، م. ع. (١٣٧٩هـ). مناقب آل أبي طالب(ع). نشر علامة. (الطبعة١)

٧. الشيرازي، ن. م. (١٤٢٥هـ). آيات الولاية في القرآن. مدرسة الإمام علي بن أبي طالب. (الطبعة١).

٨. الصادقي الطهراني، م. (١٤٠٦هـ). الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن والسنة. فرهنك اسلامي. (الطبعة٢).

٩. الصدر، م. ب. (١٤٣٤هـ). موسوعة الشهيد السيد محمد باقر الصدر. دار الصدر. (الطبعة٢).

١٠. فضل الله، م. ح. (١٤١٩هـ). من وحي القرآن. دار الملاك. (الطبعة١).

١١. الكاشاني، ف. (١٤٢٣هـ). زبدة التفاسير. مؤسسة المعارف الإسلامية. (الطبعة١).

١٢. الكاشاني، م. ب. ش. م. (١٣٧٦هـ ش). الأصفى في تفسير القرآن (م. ر. نعمتي وآخرون، تحقيق). مكتب الإعلام الإسلامي. (الطبعة١).

١٣. الكليني، م. ب. ي. (١٤٠٧ق). الكافي. دار الكتب الإسلامية. (الطبعة٤).

مجلة الدراسات المستدامة
JOSS
Journal of Sustainable Studies

مجلة الدراسات المستدامة
JOSS
Journal of Sustainable Studies